الخلدونية وعلم العمران

يقول الدكتور عمر فروخ: ليس ابن خلدون فيلسوفا اجتماعيا فحسب، بل هو " عالم اجتماعي وواضع علم الاجتماع، على أسسه الحديثة لم يسبقه إلى ذلك أحد، ثم إن علماء الذين جاءوا بعده من الغربيين أنفسهم كانوا دائما مقصرين عنه في بعض النظريات الاجتماعية أو غافلين تمام الغفلة عن عدد من قوانين العمران التي استخرجها هو في القرن الثامن هجري (14 للميلاد)، ولما أطل القرن التاسع عشر الميلادي وعرف علم الاجتماع في أوروبة وأميركة أدرك علماء العصر الحديث قيمة الآراء الصائبة وطرافة الأحكام الشاملة وبعد نظر ثاقب في ما بسطه عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته المشهورة"[1].

—

1. العمران البشري:

لا خلاف على أن التاريخ وعلم الاجتماع يختصان بدراسة الانسان، ولكن كل واحد منهما يهتم به من زاويته أو رؤيته الخاصة، لكن هذا يكشف لنا على أن بين العلمين علاقات، وهي لا تنطوي على نقاط الاتفاق فقط، وإنما أيضا على نقاط الاختلاف، "إن التاريخ لا يمتاز بدراسة موضوع خاص، فهو يشترك في ذلك مع علم الاجتماع وموضوع دراستهما، إنما هو الظواهر الاجتماعية، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون عندما تعرض لحقيقة التاريخ بقوله: "إنه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل: التحوش والتأنس... وما ينتحل البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع"[2]،

—

لم يكن اهتمام ابن خلدون بالتاريخ من أجل التسلية او مجرد علم بتفاصيل الأحداث والوقائع الماضية، بل كان يسعى إلى استنطاق التجارب الانسانية والاستعانة بها على فهم الحاضر (فهم الحاضر على ضوء

---

[1] عمر فروخ، الفلسفة العربية، ص 284- 285.
[2] جمال الدين بوقلي، قضايا فلسفية، ص 534.

الماضي)،وبهذا وصل إلى نقطة الاستفادة من التاريخ باعتباره مخبر ومخزن التجارب الانسانية، موضحا أن التاريخ غايته اسخلاص الدروس والعبر التي تساعد على فهم الحاضر وادراكه من خلال اكتشاف القوانين التي تتحكم في مسيرة التاريخ والاجتماع البشري معلنا عن اكتشافه لعلم جديد أطلق عليه اسم: علم العمران البشري، وقد رأى ابن خلدون في الرجوع إلى العمران البشري وما يعرض له، معيارا صحيحا يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما ينقلونه.

2. ماذا نقصد بالعمران؟ وماذا يدرس؟

- العمران ضد الخلاء، وهو من العمارة والتعمير. ويقصد به ابن خلدون الاجتماع البشري الذي يتم ب"التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم (البشر) من التعاون على المعاش.
- من العمران ما يكون بدويا وهو سكني الضواحي والجبال والحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال. ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأمصار والمدن والقرى والمداشر للاعتصام بها والتحصن بها وبقلاعها.
- يقصد ابن خلدون ب"العمران البشري" الحياة الاجتماعية وما ينتج عنها أو يرافقها من مظاهر اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية.. إلخ.
- وهذا العمران لا يكون تاما إلا إذا قامت فيه الدولة، "العمران دون الدولة والملك متعذر لما في طباع البشر من العدوان الداعي إلى الوازع..." أما الاجتماع البشري الذي لا يؤدي إلى قيام دولة فيه فهو عمران ناقص.
- علم العمران يدرس كل ما يحدث في العمران البشري، التام بالخصوص، من ظواهر خاصة به مثل التوحش والتأنس والعصبيات والملك والدول... على أن المهمة الرئيسية لعلم العمران هي البحث في عوامل قيام الدول وسقوطها وأسباب تعاقبها وتزاحمها[3].

—

[3] محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدن العصبية والدولة، ص 298.

3. المنهج العلمي عند ابن خلدون:

إن الشيء الجديد الذي أتى به ابن خلدون يكمن في موضوع البحث الذي هو: العمران البشري، كما يكمن في الطريقة والمنهج التي عرض بها دراسته:

نجد ابن خلدون في هذا الشأن يقول: "وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا، واخترعته من بين المناحيمذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا"[4].

كان اهتمام ابن خلدون منصبا على المسائل الاجتماعية والتاريخية وكان يراها ميدان العقل التجريبي، بحيث لم يكن يؤمن بقدرة العقل النظري على تصور الوجود كله على ما هو عليه، لأن ذلك من ميدان ما وراء الحس وهو ميدان ميتافيزيقي لا ترقى إليه المعرفة العقلية البشرية..حيث نلاحظ من خلال مؤلفه (المقدمة) أنه كان يتميز بالتمحيص والموضوعية والواقعية واولوية حقيقة الأمور عن مثاليتها، مستبعدا تلك الافكار البعيدة كل البعد عن التطبيق العملي بحكم الواقع.

إذن علم العمران البشري يستمد مبادئه من العقل والتجربة معا، وكمثال على ذلك نشير إلى هذه القضية التي يستند عليها ابن خلدون في الكثير من براهينه وهي أن: (الانسان مدني بالطبع أو بطبعه)، "فلا يتصور وجوده إلا في مجتمع، وأنه لا بد ليتم الاجتماع البشري من وازع يدفع عدوان بعضهم على بعض، وهو الملك والسلطان أي الدولة، وهذه القضية واقعية حياتية وليست من أوليات العقل الذي يمكن أن يتقبل نظريا أن الانسان يستطيع أن يعيش في معزل عن الجماعة"[5].

---

[4] ابن خلدون، المقدمة، ص 06.
[5] محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدن العصبية والدولة، ص 105.